محمد ﷺ

المثل الأعلى

محمد ﷺ

المثل الأعلى

فيلسوف الغرب الأكبر

توماس كارليل

(١٧٩٥ -١٨٧١م)

تعريب

محمد السباعي

تقديم وتحرير ودراسة

دكتور محمود النجيري

مكتبة النافذة

"لقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان؛

فوجدته في النبي محمد"

الفيلسوف الألماني "جوته"

(من كتاب "شمس الحضارة تسطع على الغرب"؛ زيجريد هونكه، ص٤٦٥)

محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى

توماس كارليل

الطبعة الأولى / 2008

رقم الإيداع 8832/ 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

النـــاشر

مكتبـــة النـــافذة

1 ش المستشار حسن دياب (برج مكة 3) المنشية

(ميدان الساعة) _ إمتداد الثلاثيني

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 _ 39848568

محمول: 0123595973 فاكس: 37827787

Email:alnafezah@hotmail.com

تصدير

بسم الله، والحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله.

عنوان هذا الكتاب بالإنجليزية: (Heroes and Hero-worship). وترجمتها: "البطولة وعبادة الأبطال"[1].

وضعه الكاتب الأشهر، والفيلسوف الأكبر، توماس كارليل، وعرَّبه محمد السباعي. ويحتوي على خمس محاضرات، ألقاها الكاتب على بني قومه، هي:

- المحاضرة الأولى: البطل في صورة إله.
- المحاضرة الثانية: البطل في صورة رسول: محمد- الإسلام.
- المحاضرة الثالثة: البطل في صورة شاعر: دانتي- شكسبير.

---

[1] هذا العنوان يثير حساسية لدى كل مسلم؛ لأنه يصدم عقيدته في صفائها وطهارتها؛ فالعبودية لا تكون إلا لله وحده. كما يقول الله سبحانه في كتابه المجيد: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (يوسف:٤٠). ولا يجوز في ذلك تأويل، ولا مجاز.

ومفهوم عبادة البطل عند كارليل هو "الإفراط في إجلاله، إفراطا لا حَدَّ له". ولا نوافقه على هذا؛ فالعقيدة الصحيحة: أنه لا يجوز الإفراط في بشر قط، ولا رفعه فوق بشريته. لذا حذر رسول الله من الإفراط فيه؛ حتى لا تقع أمته في الشرك كما وقعت النصارى بغلوها في المسيح؛ فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد.؛ فقولوا عبد الله ورسوله" (أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} (مريم:١٦)، حديث رقم:٣٢٦١). ويقول الله ﷻ: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} (آل عمران:٧٩).

- **المحاضرة الرابعة: البطل في صورة قسيس: لوثر- البروتستينية، نوكس البيوريتانية.**

- **المحاضرة الخامسة: البطل في صورة كاتب: جونسون- روسو- بارنز.**

- **المحاضرة السادسة: البطل في صورة ملك: كروميل- نابليون.**

ونقتصر في طبعتنا هذه على المحاضرة الثانية، التي ألقاها الكاتب بتاريخ (٨ مايو، سنة ١٨٤٠م).

وقد آثرنا إصدار هذه المحاضرة مفردة في كتيب يحمل اسم "**محمد ﷺ المثل الأعلى**".

وأهمية ما كتبه توماس كارليل منذ هذا الوقت البعيد، تكمن في تجرده وموضوعيته الواضحة في مؤلفه، وغيرته على الحقيقة التاريخية، ورفضه للأحكام السابقة والمتحيزة، وفي دراسته لسيرة الرسول ﷺ، وللفترة المرافقة لنزول الوحي، وبدء الدعوة الإسلامية. ورده على تهجمات بعض الغربيين على الإسلام ونبيه، وهم الذين طالما ألصقوا التهم الباطلة برسول الله ﷺ، وبالدين الحنيف.

ويؤمن فيلسوف الغرب كارلايل بأهمية الدين في حياة البشر، ودوره الكبير في تشكيل تاريخهم. فما التاريخ إلا تاريخ الأفكار التي صاغت حياة الناس. وإن تاريخ البشر هو تاريخ عظماء الرجال الذين صاغوه، وتاريخ الأفكار التي بثوها في الناس. يقول في ذلك:

"في اعتقادي أن التاريخ العام، تاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم، إنما هو تاريخ مَن ظهر في الدنيا مِن العظماء؛ فهم الأئمة؛ وهم المكيِّفون للأمور؛ وهم الأسوة والقدوة؛ وهم المبدعون لكل ما وُفِق إليه أهل الدنيا. وكل ما بلغه العالم، وكل ما تراه قائمًا في هذا الوجود كاملا متقنًا، فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء، الذين اصطفاهم الله، وأرسلهم إلى الناس

ليؤدي كلٌّ ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير. فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول".

صفات الرجل العظيم كما حددها كارلايل:

١. إخلاص الرجل الكبير، رجل صادق النية، جادٌ مخلصٌ. إن الإخلاص- الإخلاص الحر، العميق الكبير- هو أول خواص الرجل العظيم.

٢. الصدق وحب الخير، إنه من المحال أن يكون كاذبًا؛ فإني أرى الصدق أساسه؛ وأساس كل ما به من فضل ومحمدة.

٣. إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه أبدًا، ولا يتحدث به مطلقا.

٤. أصالة الرجل العظيم، وصفاء جوهره، وكريم عنصره، فقد علّمه الله العلم والحكمة؛ فوجب علينا أن نُصغي إليه.

٥. يرى الوجود حقيقة كبرى، تروعه وتهوله حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر. وتظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه، ونُصْبَ عينيه.

٦. يرى باطن كل شيء. لا يحجب عنه ذلك باطلُ الاصطلاحات، وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات، وسخيف الأوهام والآراء. وإن الحقيقة لتسطع لعينه سطوع الشمس في رابعة النهار.

لماذا انبهر كارلايل بشخصية محمد ﷺ ؟

يذكرها كارلايل صريحة لبني قومه:

"الحقيقة الكبرى، وهي أنه رجلٌ صادق، ونبيٌ مرسل".

ويقول أيضًا:

"كلا، ما محمد بالكاذب، ولا المُلَفِّق. وإنما هو قطعة من الحياة، قد تَفَطَّر عنها قلبُ الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله، وذلك فضل الله، يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم"[1].

ويمكن أن نحدد أسباب إعجاب كارليل بشخصية رسول الله ﷺ فيما يلي:

١. أمية محمد، وأنه لم يعلمه بشر، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء، فلم يعرف من العالم، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يُبصره بنفسه، أو يصل إلى سمعه، في ظلمات صحراء العرب. ولم يضره، ولم يُزْرِ به أنه لم يعرف علوم العالم، لا قديمها، ولا حديثها؛ لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره.

٢. صدق محمد وأمانته التي اتصف بها منذ حداثته. ووفاؤه النادر، وإخلاصه لعشرائه. واتصافه بالمروءة والشرف.

٣. إيثاره للصمت، وبعده عن التكلف. فإذا نطق أتى بالحكمة البالغة، وفصل الخطاب. بعيدًا عن التلاعب بالأقوال، والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق.

٤. كان رجلاً راسخَ المبدأ، صارمَ العزم، بعيدَ الهم، كريمًا برًا، رءوفا تقيًا، فاضلاً حرًا. رجلاً شديدَ الجدِّ مخلصًا، عظيم النفس. وما كان بعابث قط، ولا شابَ شيئًا من قوله شائبة لعب ولهو.

---

[1] يقول الشاعر الفرنسي الشهير "لامارتين" في كتابه "السفر إلى الشرق": «أترون أن محمداً كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا؛ بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته».

٥. كان سهل الجانب، ليِّن الجانب، جَمُّ البِشْر والطلاقة، حميد العشرة، حُلو الإيناس، بل ربما مازحَ أصحابه، وداعبَ أزواجه.

٦. كان محمد جميلَ الوجه، وضئ الطلعة، حسن القامة، زاهي اللون. له عينان سوداوان تتلألآن. تضئ وجهَه ابتسامةٌ مشرقة، من فؤاد صادق.

٧. كان ذكي اللب، شهم الفؤاد، ممتلئًا نارًا ونورًا. رجلا عظيمًا بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبَّه معلم. وهو غني عن ذلك.

٨. كان حاد الطبع، ناري المزاج، ولكنه كان عادلا، صادق النية، مملوءًا رحمة وخيرًا، وحنانًا وبرًّا.

٩. تواضعه، فلم يكن متكبرًا، ولم يكن ذليلا ضرعًا. بل هو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله، وكما أراد. يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم، وأكاسرة الفرس، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة، وللحياة الآخرة.

١٠. كان زاهدًا متقشفا في مسكنه، ومأكله، ومشربه، وملبسه، وسائر أموره وأحواله. وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار. وكان يصلح نعله، ويرفو ثوبه بيده.

ولكل هذه الصفات وغيرها، رمى كارلايل أعداء محمد، والطاعنين عليه بأنهم "الأفاكون، الجهلة، الكفار، أصحاب الأضاليل والأباطيل". وأعلن لبني قومه دخيلة نفسه، فقال:

"وإني لأحب محمدًا؛ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي، لا يُعَوِّل إلا على نفسه، ولا يدَّعي ما ليس فيه".

دفاع كارليل عن محمد ﷺ، وعن الإسلام:

في بحث كارلايل عن البطولة في بني البشر، نظر إلى رسول الله نظرة إنصاف فقال لبني قومه:

"أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة، وآيات على أشرف المحامد، وأكرم الخصال. وأتبين فيه عقلا راجحًا عظيمًا، وعينًا بصيرة، وفؤادًا صادقًا، ورجلا قويًا عبقريًا. لو شاء لكان شاعرًا فحلا، أو فارسًا بطلا، أو ملكًا جليلا، أو أي صنف من أصناف البطل".

نظر كارلايل نظرة رجل يبحث عن الحقيقة- في حياة محمد، وطالع أقواله وأعماله، فوجد أن محمدًا الرحيم أخو الإنسانية- أخونا جميعًا الرءوف الشفيق، وابن أمِّنا الأولى، وأبينا الأول.

رد كارلايل مزاعم من رمَوْا محمدًا ﷺ بالكذب، ورأوا في الإسلام خدعة وتلفيق، وأخذته غيرة كبيرة على الحقيقة التي يؤمن بها، فرفع بها صوته في بني قومه قائلا:

"لقد أصبح من أكبر العار، على أي فردٍ متمدين من أبناء هذا العصر، أن يُصغِي إلى ما يُظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خَدَّاعٌ مُزَوِر. وآن لنا أن نحارب ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا[1]، خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن: أن هذه الرسالة التي عاش بها، ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصار. أكذوبة وخُدْعة؟! أما أنا، فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج،

---

[1] العدد الآن يزيد على ذلك بمليار نسمة.

ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بُلْهٌ ومجانين، وما الحياة إلا سَخَفٌ وعبَثٌ وأضلولة، كان الأولى بها أن لا تُخلق[1].

ودافع كارلايل عن الإسلام، مقررًا أنه الحق الذي قضى على الباطل قال:

"لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها. وحق له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة. وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق؛ فإنها حطب ميت، أكلته نار الإسلام، فذهبَ. والنار لمْ تذهب".

وبين كارلايل أيضا: أن الإسلام دين كل فاضل شريف. وقال بأنه إذا كان الإسلام هو أن نُسلم الأمر لله، ونُذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه. فنحن جميعًا على الإسلام، مستشهدًا بقول شاعر الألمان العظيم "جوته":

إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون

وبين أيضا أن الدعوة إلى عمل الخير- التي أتى بها الإسلام- هي قانون الكون العادل، ودعوة جميع الرسالات، والمنهج الأقوم، وسبيل السعادة.

وأوضح كارلايل أن جوهر الإسلام هو أن نتوكل على الله قبل كل شيء، وأن نفطم النفس عن الشهوات، وننهي القلب عن الهوى، وأن لا نجمح في عنان المنى، وأن نصبر على الأحزان والآلام، ونرضى من الله كل ما قسم.

وهذا التسليم لإرادة الله وقدره ليس ضعفا، ولكنه قوة الرضا بما لا

---

[1] ويقول (لامارتين) في كتابه "السفر إلى الشرق": «إن محمدًا فوق البشر، ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل.. وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته، فكشف فيها عن القيم الروحية، ثم قدمها لأمته ديناً سماوياً سرعان ما اعتنقته؛ هو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر».

حول لنا به، ولا قدرة عليه، وصبر على بلاء الله، وثبات في امتحان الإيمان بأن الله هو الفعَّال لما يريد، وما نحن بين يديه إلا عبيد.

ويُعجب كارلايل من فضائل الإسلام: تضحية النفس في سبيل الله. ويعد هذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض.

وفي الإسلام خلة، يراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل عنده على أصدق النظر، وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء.

ومن ادَّعَوْا- من الغربيين- أن الإسلام ما هو إلا بدعة نصرانية، ردَّ عليهم كارليل قائلا:

"نحن سَمَّينا الإسلام "ضربًا من النصرانية". ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب، وشدة امتزاجه بالنفوس، واختلاطه بالدماء في العروق؛ لأيقنا أنه كان خيرًا من تلك النصرانية، التي كانت إذ ذاك بالشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان. تلك النصرانية، التي كانت تُصَدِّعُ الرأس بضوضائها الكاذبة، وتتركُ القلبَ ببطلانها قفرًا ميتًا!".

ويُجَلي كارلايل دعوة الإسلام إلى تحطيم الأصنام، ونبذه لكل وثنية، وإعلائه لدعوة التوحيد الخالص، مؤكدًا عظمة هذه الدعوة قال:

"وإن دينًا آمن به أولئك العرب الوثنيون، وأمسكوه بقلوبهم النارية، لَجديرٌ أن يكون حقًا، وجدير أن يُصَدَّقَ به. وإن ما أودع هذا الدينُ من القواعد، هو الشيء الوحيد، الذي للإنسان أن يؤمن به".

ماذا يعنون بأخطاء محمد ﷺ؟

هل لمحمد ﷺ أخطاء وهفوات؟

ادعى بعض أهل الغرب أن لمحمد ﷺ أخطاء وأغلاط.

ولا شك أن محمدًا ﷺ لا يُخطئ في تبليغ الرسالة؛ لأن الله ﷻ عصمه من الخطأ في البلاغ، كما عصم كلَّ رسول بعثه من لدنه. يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (المائدة:٦٧).

ولا يدع الله الرسول يُبدِّل في الوحي، كما يقول تعالى: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} (الإسراء:٧٣-٧٥).

ولا يترك الله الرسول يزيد أو يُنقص في الدين، يقول سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} (الحاقة:٤٤-٤٧).

ويبطل الله كيد الشيطان في محاولته خداع الرسول لإضلاله، كما يقول الله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج:٥٢).

وهذا كله فيما يتكلم به الرسول من الدين مبلغًا عن الله ﷻ. فكل ما ورد به من تشريع، هو من عند الله. ولا يُلام عليه الرسول ﷺ إذا كان لا يرضى به بعضُ الغربيين أو الشرقيين.

وأما ما يتكلم به الرسول من عند نفسه في عوائد الناس، وشئون الدنيا، فقد يُخطئ فيه الرسول؛ وذلك لأنه لم يُبعث بعلوم الطب، ولا الكيمياء، ولا الهندسة، ولا الفلك، ولا الطبيعة ... إلخ من شئون العالم. فإذا قال فيها قولا بصفته البشرية، فكان خطأ، فإنه لا يُطعن في صفته رسولا من عند

الله تعالى. وقد أشار النبي ﷺ على أصحابه بعدم تأبير النخل، وترْك تلقيحه الذي اعتادوا.

والحديث في ذلك رواه رافع بن خديج ﷺ قال: "قدم نبي الله ﷺ المدينة، وهم يُأبرون النخل. يقولون: يُلقحون النخل. فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا! فتركوه، فنفضت، أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: **إنما أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم، فخذوا به. وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أن بشر**"[1].

وأما ما يدَّعيه الغرب من أخطاء لرسول الله محمد ﷺ، فكلام مردود عليه. وذلك كزواجه ﷺ من عدد كبير من النساء، فهذا من العوائد الدنيوية، التي لا يصح أن نحكم عليها بمقاييس عصرنا وعوائده. فقد كان لنبي الله إبراهيم ﷺ ثلاث زوجات، ونبي الله يعقوب، كان له أربع زوجات، وتزوج موسى ﷺ من أربع نساء، كل ذلك حسبما ورد في التوراة. وقد ورد في سفر صموئيل (٢٣ :٢٦) ذكر تسع زوجات لسيدنا داود ﷺ. هذا غير جواريه. وورد أنه كان لسليمان ﷺ سبعمائة زوجة، وثلاثمائة أمة.

وفي إنجيل متى أن المسيح ضرب هذا المثال:

"١ حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى، أخذن مصابيحهن، وخرجن للقاء العريس. ٢ وكان خمس منهنّ حكيمات، وخمس جاهلات. ٣ أما الجاهلات، فأخذن مصابيحهن، ولم يأخذن معهن زيتا. ٤ وأما الحكيمات، فأخذن زيتا في آنيتهن، مع مصابيحهن. ٥ وفيما أبطأ العريس، نعسن جميعهن ونمن. ٦ ففي نصف الليل، صار صراخ: هو ذا العريس

---

[1] (أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث: ٢٣٦٢).

مقبل، فاخرجن للقائه. ٧ فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحن مصابيحهن. ٨ فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن؛ فإن مصابيحنا تنطفئ. ٩ فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكنّ بل اذهبن إلى الباعة، وابتعن لكنّ. ١٠ وفيما هنَّ ذاهبات ليبتعن، جاء العريس، والمستعدات دخلن معه إلى العرس، وأغلق الباب"[1].

فهذا العريس، له عشر زوجات، والمسيح لم ينكر عليه ذلك.

ماذا عن أخطاء داود عليه السلام؟

يزعم اليهود والنصارى أن نبي الله داود فعل أمرًا قبيحًا، لا يجوز من أعتى المجرمين. فاشتهى زوجة قائده "أوريا الحثي"، وزنى معها، وحبلت من هذا الزنا. ثم أضاف على خطيئته خطيةً أخرى، بمحاولته تغطية الأولى وإخفائها، وهي قتل زوجها[2].

ولا شك أن الله تعالى عصم نبيه داود عليه السلام من مثل هذا. وما هو إلا كذب وافتراء. كما افتروا على غيره من الأنبياء والرسل، فصوروا لوطا شرب الخمر حتى سكر، ثم زنا بابنتيه حتى أحبلهما. وصوروا يهوذا يزني

---

[1] متى، الإصحاح الخامس والعشرون.

[2] القصة بتمامها في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر. ومنها: "٢ وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا. ٣ فأرسل داود، وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت إليعام، امرأة أوريًّا الحثّي؟ ٤ فأرسل داود رسلا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهّرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. ٥ وحبلت المرأة، فأرسلت، وأخبرت داود، وقالت: إني حبلى .... ١٤ وفي الصباح، كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا.

١٥ وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب، ويموت".

بكنته.

وقصة داود ﷺ في القرآن ليس فيها ذلك. بقول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص:٢١-٢٥).

وفي الإسرائيليات: النعجة رمز المرأة التي أحبها داود فانتزعها، وكان له من النساء تسع وتسعون.

وهذا التفسير غير صحيح، ولا يوجد في شيء من كتب التفسير المعتمدة، التي تقف عند الصحيح، وتمحص الأخبار.

وأما تأويل الآية الشريفة فهو- والله أعلم: أن داود ﷺ لما أغلق على نفسه الباب، ولزم الخلوة والعبادة، اضطر الخصمان إلى أن يتسوروا عليه المحراب، ففزع منهم، وفي ساعة الفزع هذه، سمع من أحدهما، وحكم له ولم يسمع من الآخر: وهذا هو الابتلاء، وهذه هي الفتنة التي استغفر منها داود. وقد مدحه الله سبحانه بقوله: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص:١٧-٢٠).

قال القاضي عياض- رحمه الله: "وأما قصة داود ﷺ فلا يجب أن

يلتفت إلى ما سطره فيه الإخباريون من أهل الكتاب، الذين بدَّلوا، وغيَّروا. ونقله بعضُ المفسرين. ولم ينصّ الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح"[1].

وكان على بن أبي طالب ﷺ يقول: "مَن حدَّثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين. وهو حد الفرية على الأنبياء".

حديث كارليل عن الوحي والقرآن:

يؤمن كارليل بأن نور الله، قد سطع في روح محمد، فأنار ظلماتها. وهذا النور هو ضياءٌ باهر، كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك. وهو وحي الله، يهب الفهم والإدراك. وهو العلم، والنفاذ إلى صميم الأمور، وجواهر الأشياء- وذاك سِرٌّ من أغمض الأسرار.

وكون الله قد أنعم علي محمد بكشف تلك الأسرار له، ونجَّاه من الهلاك والظلمة. وأمره بإظهارها للعالم أجمع. فإن هذا كله هو معنى كلمة "محمد رسول الله". وهذا هو الصدق الجلي، والحق المبين.

هذا عن الوحي عمومًا، أما القرآن، فيقرر كارليل أنه قد: "رآه العرب من المعجزات، وأعطَوْهُ من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم. وما بَرِحَ في كل زمان ومكان: قاعدة التشريع والعمل، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها، والوحي المُنَزَّل من السماء، هدىً للناس، وسراجًا منيرًا، يضيء لهم سبل العيش، ويهديهم صراطا مستقيمًا، ومصدر أحكام القضاة، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه، والاستنارة به في غياهب الحياة".

---

[1] الشفا بأخبار المصطفى: القاضي عياض ١٣٦/٢.

ويلمس كارلايل في القرآن: "الإخلاص المحض الصراح"، ويظهر له "أنه فضيلة القرآن التي حببته إلى العربي المتوحش، وهي أول فضائل الكتاب".

ويعجب بما جاء في القرآن من الصلوات، والتحميد والتمجيد، ولكنه شديد الإعجاب بما يجد فيه من النظر الصائب، الذي ينفذ إلى أسرار الأمور. فهذا أعظم ما يلذه ويعجبه منه.

ويرفض كارليل كل طعن في القرآن، ويدفع قول القائل بأنه "الأخاديع والتزاويق، التي لفقها محمد". بل نراه يقول في عبارات صادقة:

"إني لأمْقُتُ كلَّ من يرمي محمدًا بمثل هذه الأكاذيب. وما كان لذي نظر صادق قط، أن يرى في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل".

ومع ذلك نرى كارلايل يبعد عن التوفيق حين نلمح من كلامه أنه يرى القرآن كلام محمد[1]. ونقول في وضوح: إن هذا الظن خطأ؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ، نزل به جبريل (أمين الوحي) على محمد ﷺ، مبلغا عن الله تعالى. يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥).

وعقيدة جميع المسلمين: أن القرآن كلام الله ﷻ، باللفظ وبالمعنى. وهذا هو الكتاب. يقول الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ

---

[1] لا يؤمن النصارى بالوحي المباشر من الله سبحانه إلى البشر. ولكن الوحي عندهم هو مجرد إلهام من الله. وقد عرفه "ويستر" قال: "هو تأثير روح الله الفائق للطبيعة على الفكر البشرى. به تأهل الأنبياء والرسل والكتبة المقدسون لأن يقدموا الحق الإلهي بدون أي مزيج من الخطأ". وفي الرسائل ما يوضح ذلك، قال: "لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناسُ الله القديسون، مسوقين من الروح القدس" (بطرس الثانية ١:٢١).

الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:٧). ويقول- عزَّ من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣).

وربما كانت الترجمات المتاحة في ذلك الوقت لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، غير وافية بتقديم روح القرآن ومعانيه للغربيين؛ ولذا عجزوا عن فهمه، كما قال كارلايل نفسه:

"إن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة، وحسن الصياغة. ولذلك لا عجبَ إذا قلتُ: إن الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء".

رد كارلايل على الزاعمين بأن الإسلام انتشر بالسيف:

يبين كارلايل أن دعوة محمد كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية، وعدم الإصغاء إلى صوت الحق، حتى أرادوا أن يُسكتوه، فلا ينطق بالرسالة.

فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق، وشريعة الصدق، وأبوا إلا تماديًا في ضلالهم، يعبدون الأصنام، ويستبيحون الأعرض، ويئدون البنات، ويشربون الخمر، ويلعبون القمار، ويخطفون النساء، ويسلبون، وينهبون، ويَقتلون النفسَ التي حَرَّم الله قتلها، ويأتون كل إثم ومنكر. فلما دعاهم إلى ترك كل تلك الموبقات، وعبادة الله وحده، تآمروا لقتله، واضطروه للهجرة من بلده ومن آمن معه.

وقد جاءهم محمد ﷺ من طريق الرفق والأناة، فأبوا إلا عتوًا وطغيانا، فليُجْعَلِ الأمرُ إذنْ إلى السيف الذي أرادوا، وليدفع عن نفسه وعن دعوته كل معاند محارب، كما قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا

وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٣٩-٤٠).

لذا ليس من الصواب القول هكذا بأن محمدًا نشر دينه بالسيف، بل هذا من تشنيع بعض الغربيين، الذين يرد عليهم كارلايل بما يلي:

١. ما هو الذي أوجدَ السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حق. والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد، فردٌ ضد العالم أجمع. فإذا تناول هذا الفرد سيفا، وقام في وجه الدنيا، فقلما والله يضيع.

٢. أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة، حسبما تقتضيه الحال. أوَلَمْ تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا؟ وأنا لا أحفل: أكانَ انتشارُ الحق بالسيف، أم باللسان، أم بأية آلة أخرى. فلندعْ الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة، أو بالصحافة، أو بالنار. لندعها تكافح، وتجاهد بأيديها، وأرجلها، وأظفارها؛ فإنها لن تَهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزم. وليس في طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها، بل ما هو أحط وأدنى.

٣. وضرب مثلا من الطبيعة بالقمح وما يحيطه من قشور، فالطبيعة لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادقَ اللباب، حرَّ الصميم. فإذا كان كذلك حمته وحرسته، أو كان غير ذلك لمْ تحمِهِ، ولمْ تحرسْهُ. أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى، جاءت إلى هذه الدنيا، أو تجئ فيما بعد؟ أعني: أن الحقيقة مزيج من حق وباطل، نور في الظلام[1].

---

[1] هذه فلسفة من الكاتب لا نوافقه عليها؛ فالإسلام حقيقة إلهية، لا شية فيها؛ تهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم؛ لأنه تنزيل من لدن حكيم حميد. كما يقول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ